الجنية العاشقة

للكاتب الفرنسي اميل زولا

أرهفي أذنك يا نينون ! إن مطر ديسمبر يلطم الزجاج ، والهواء يرسل أنينه ، ويردد شكواه .. إنها أمسية من الأماسي الباردة ، التي يقضقض البائس فيها من القر ، أمام قصر الغنى الغــــارق في اللذائذ تحت توهج الذهب ! ... إخلعي حذاءك هناك ... وضعي حليتك الثمينة هنا .. وتعالي إلى أحضاني ، فــأروي لك قصة من أروع قصص الجان

نينون ! هناك على ذروة الجبل قصر عتيق ساد الظلام فيه وجثم الحزن فوقه .. ما ترين إلا أبراجا صاعدة نحــو السماء ، وأســوارا منيعة شماء ، وجسورا متحركة جهزت بالسلاســل ؛ وملئت برجال أولى بأس شديد ، ابوسهم الحديد ، يسهرون الليل والنهار على الشرفات ، ولا يجدون راحة أو سلوة إلا بجانب سيد الحصن الجبار ، الكونت أنكيران

لو كنت رأيت ذلك الكونت يا نينون ، وهــو يتنزه في مماشي القصر الضيقة ، وسمعت قرقعة صوته ينذر بالوعيد ، إذن لأصابك الجزع ، واضطربت كما تضطرب أوديت ابنة أخيه .. ؟ تلك الحسناء الرعيب التي تفتحت أنوثتها بين فرسان قساة ، كما تتفتح زهرة الأقاح ، إذا تنفس الصبح ، تحت قبلات الشمس المضحوك بين أشواك الجبال

كانت وهي طفلة ، إذا أبصرت عمها الشيخ ، وقد ضمت إلى صدرها الذي زرت(١) عيناهــا وهبت مذعورة . تذرف الدمع . أما الآن فهي في ربيع الحياة . إن ثديها يانئتاني يئنان الشكوى ويرسلان الآهات . وما يزال الخوف يستولى على نفسها كلما طلع أمامها هذا المحارب القديم ...

وكانت تأتي إلى برج بعيد ، تتلهى فيه بحياكة أعلام ورايات فإذا أعياها هذا العمل الموئس لجأت إلى الله تبثه حزنها وتدعوه ، أو قلبت طرفها في السماء الضاحكة وسرحت بصرها في المروج الحادرة ... وكم من المرات ، يانينون ، كانت تقوم من مهجعها وقد سجا الليل وهف النسيم لتنظر إلى النجوم ... وكم من المرات كان قلبها يخفق لهــذا المشهد الساحر ، ويحن إلى تلك المروج المتوائبة نحو الأفق البعيــد ، ثم تسائل الكواكب عن ذاك الشيء الذي يتلاعب بروحها ويثير شجونها ...

ودت بعد تلك الليالي التي ســاهرت فيها النجم وبعد ذلك الحنين اللاهف للحب لو أنها ضربت يوما عنق هــذا الفارس المرم فوقصتها (٢) ولــكن ، وا أسفــاه ! ما كان لها حول ولا قوة ... إن كلامه جاف برعب ، وإن نظراته جامدة تفزع ... فكانت تأخذ الإبرة مضطربة الحواس واجفة القلب وتعود إلى وشيها الشاق !

إنك تأسفين ، يانينون ، لتلك الحسناء ، إنها كالزهرة الريانة ذات العبير الطيب والأريج الشذى التي يصدف النــاس عن رائحتها ويلهون عن جمالها ... !

كانت ترنو يوما بعينين حالمتين إلى قريتين تربدان الهرب من الحصن ، فسمعت صوتا عذبا يتعالى عنــد باب القصر ، فانحنت من الــكوة ، وإذا شــاب حلو القسمات وسيم المنظر ، تأنس العين لمرآه ، يطلب المبيت ، مرسلا أنشودة بصوت رخيم ما فهمت لها معنى ولــكن خفق لهــــا قلبها . ورأرأ الدمع في عينيها ، ثم فاض ... فــساقطت دراً من نرجس ، وبللت غصنا من المارجولين (٣) كان بين يديها ..

ــــــــــــــــ

في سنة ١٨٦٤ كتب أميل زولا أقاصيص رائعة صدرت تحت عنوان « أقاصيص الى نينون » صور الكاتب فيها صفحة من صحائف صباه ، إذ كان في البروفانس الى جانب فتاته نينون ينشد السعادة ويتــذوق اللذة ، وذكر كيف كان يقص عليها ، كل يوم ، فوق الهضاب ، وبالقرب من الينبوع ، وبجانب الموقد ، أقاصيص طريفة : وهي ذكرى لشباب ذابل وحب خالد

وزولا من أكبر الكتاب الذين عرفتهم فرنسا في القرن الماضي ، وكان مفننا ، إذا قرأت كتاباته وجدتها تفيض بالحياة وتتدفق بالشعر ، ولقد كان عيل إلى الابداعيين ، ويحذو حذوهم ؛ وألف قصصا كثيرة ، يظهر لك من خلالها أسلوبه المشرق ، الذي جمع بين سحر الفن وجمال التصوير

(١) يقال زرت عينه إذا توقدت من خوف أو غيره

(٢) وقصتها أى كسرتها يقال وقص الرجل إذا دقت عنقه

(٣) الســوسن ، وهو نبات طيب الرائحة له أزهار كأزهار الياسمين ..

obeikandl.com

وساد سكون عميق، وبقيت الأبواب مغلقة . ونادى فارس من أعلى الأبراج قائلا .

إذهب وشأنك أيها الغريب ، فليس هنـا سوى فرسان محاربين ..

وهم الطارق أن يذهب . ولـكن أوديت ، التي عاق بصرها به ، فما يطرف أو يتحول ، تركت الغصن رطيبا بالدمع ، يفلت منها ، ليقع تحت أقدامه ورفع الشاب رأسه ، فإذا وجه صبوح يطل عليه ... والتقط الغصن ابشبعه لثما وتقبيلا . ثم ابتعد عن القصر ، وهو ينظر كل لحظة إلى الفتاة

فلما غيبه الطريق المنحدر قامت أوديت تدعو الله وتصلي له ؛ ثم شكرت للسماء وأحست السعادة فرقصت فرحا ، وهي لا تدري لـكل ذلك سببا .. !

فلما كان الشفق جلست إلى راية تصلحها ، وهي تفكر في ذلك الفتى ، ثم داعب النعاس أجفانهـــا فأذبلها وارتمت على فراشها ... واستسلمت لنوم قلق مضطرب ، ورأت حلما ...

إنه حلم ساحر يا نينون ! خيل إليها أنهـا ترى غصن المارجولين الذي أفلت من يديها ، وإذا بجنية ، ما رأت العين أجمل منها تخرج من زهرة تتفتح بين أوراق الغصن المرتعشة . ولها أجنحة من اللهب ، وتاج من الأزهار ، تتدثر برداء أزرق ، لونه رمز الأمل ، وتناديها بصوت حلو النبرات :

أوديت ! أنا الجنية العاشقة ! أنا التي أرسلت إليك لويس هذا الصباح ذاك الفتى ذا الصوت الحنون ... أنا التي ، وقد رأيتك تذرفين الدمع ، جئت لأجففه .. أضرب في الأرض ، وأؤلف بين قلوب العاشقين . ! ... أزور الـكوخ ، كما أزور القصر ، وأجمع عصا الراعي إلى صولجان الملك . أنا التي أزرع الورد تحت أقدام المحبين .. ! ثم أربط بينهم بينين تختلج القلوب لهم فرحا . أعيش بين الأعشاب ، وفي جذوة الموقد المتأكلة ، وتحت رفارف أسرة الأزواج .. ! وحيث أضع قدمي فهنـاك يقوم حديث المنزل ، ويكون همس القبل ! لا تبكي أوديت ، فقد أتيت لأجفف دموعك ...

وعادت الجنية إلى الزهرة التي خرجت منها، واختفت هناك ..

أنت تعرفين يا نينون أن جنيتنا في الوجود .. انظري إليها ترقص في الموقد ، وتأبى إلى لا يفكر بها

واستيقظت أوديت وأشعة الشمس تنير غرفتها والعصافير تصدح بالأغاني والنسيم الصافي يداعب شعرها المفدود الأشقر ، وقد حمل عبير القبلة الأولى التي سرقها من الأزهار على عجل . فنهضت والنفس مفعمة بالفرح ، وقضت يومهـــا تغني تارة وتنفض(٤) الحقول أخرى ، وترسل ابتسامة رقيقة لـكل عصفور يحلق ، والأماني تغريها فتقفز هنا وترقص هناك ، ثم تضرب كفيها الصغيرتين بعضهما إلى بعض بقوة وسرور ...

فلما كان الطفل تركت مخدعها ، وهبطت إلى ردهة القصر الـكبرى فوجدت فارسا يصغي إلى حـديث عمها الـكونت ، فعمدت إلى مغزلها وانتبذت مكانا إلى جانب الموقد تسمع إلى صر صر يغني

ونظرت إلى الشاب ، فإذا غصن المارجولين بين يديه ، يا لله ! إنه لوئيس ... وعلت وجنتيها حمرة ونضرة ، وكادت ترسل صرخة تدوي في فضاء الردهة ، ولـكنها انحنت على الوقد تؤرث النار فيسمع لها حسيس كأنه بث الأحزان ، ويتمايل اللهب ، ويفور الوقد ، وتهيج النار . وفجأة ينبجس من الوقد نور شديد وتظهر الجنية العاشقة ، وقد افتر منها الثغر ، ومال منها الجيد ... فتجمع ثوبها الأزرق بين يديها ، وتنطلق في الغرفة دون أن يراها أحد إلا أوديت ...

أما الـكونت فكان مسترسلا في حـديثه يقص نبأ معركة هائلة وقعت مع الـكفار ، ويقول :

— ... فتحابوا يا أولادي .. ودعوا أشبـاح الشيخوخة الزاهدة . أبقوا لها الأقاصيص بجانب النار المشتعلة ، ولا تجمعوا الآن إلى زفير النار سوى وسوسـة القبل .. ! سيكون لـكم يا أولادي من ذكرى هذه الساعات التي ذقتم بها اللذة ما يخفف أحزانكم وهمومكم فيما بعد ... والمرء عنـدما يحب وهو في السادسة عشرة من عمره ، فالـكلام لا يجديه آنئذ نفعا . إن نظرة واحدة خير من خطاب طويل . تحابوا يا أولادي واتركوا الشيخوخة تتكلم ...

وأظلت الجنية العاشقين بأجنحتها ، فغدا الـكونت لا يرى لويس الحبيب ، وهو يطبع قبلته الأولى على جبين أوديت الحبيبة

(٤) تنفض الرجل المـكان : إذا نظر اليه ليرى كل ما فيه

المرتعشة !

نينون ! يجب أن أتكلم لك على أجنحة جنيتي .. لقد كانت شفافة كالبلور ، دقيقة كأجنحة الذباب ، ولكنها أيضا كانت تنقلب إلى ظلام دامس كثيف فلا يتجاوزهـــا عندئذ رنين القبلات ووجيب الأفئدة ... ليكون العاشقان بنجوة من العيون ! وهكذا ... وبينما الشيخ غارق في حديثه عن معركة المؤمنين والكفار ، كانت معركة القبل قائمة بين لوئيس وأوديت ... !

لقد حضن الجسم الريان ، وقبل الخد الأسيل ، ودغدغ النهد الناعم ، وتمتم بالطرف الوسنان ... والشيخ في حديثه غارق مسترسل ... !

ليت شعري ما تلك الأجنحة ... ؟ إن الفتيات ليجدنهن أحيانا — كما قيل — فيأمن شر الأبوين ويتمتعن بالحبيب ، أحقا ما يقال يانينون ... !

واختفت الجنية العاشقة ، وقد أنهى الكونت قصته ، وذهب لوئيس شاكرا لمضيفه الكونت... ونامت الفتاة تحفها السعادة ، والأماني حولها حوم ترفرف ، والعين قريرة والبال هادئ

أما هذه الليلة ، فقد رأت جبالا كأنها أزاهير ، زينت بألوف من الكواكب المصابيح نور كل منهـــا أشد وضاءة من نور الشمس ....

وأصبح الغد ، فلما متع النهار نزلت إلى حديقة القصر والتقت ثم بفارس حياها فردت له التحية، ولما ابتعد عنها نظرت إليه ، فإذا غصن المارجولين معه رطب بالدمع . وها هي ذي أوديت تلتقي بالحبيب مرة أخرى ... لقد عاد إلى القصر بعد أن تنكر بزي فارس . أواه يانينون ! لشد ما يكون السرور عظيما عندما تلتقي الحبيبة بفتاها في وضح النهار ... !

وأجلسها على مقعد مخضوضر من العشب تحت ظلال السنديان ، واللسان صامت والعقل شارد ، وراحت العيون تتناجى ... والأفئدة تصغي ...

لن أقول لك يافتاني ما تحدثت به شجرات السنديان عندما رأت الحبيبين . إن في سماع الحبيبة وهي بين يدي الحبيب لذة ، لقد جاءت الطير كلها تستمع إلى لحن الحب ، وتبقى أعشاشها فوق تلك الشجرات ...

وسمعت الفتاة على حين بغتة وقع أقدام الكونت وهو يمشي في الممر الطويل . . فأصابتها الرجفة وانتظرت شرا مستطيرا . . ولكن .. إن الينبوع لايزال يرسل خريره الحلو الشجي ، وهاهي ذي جنيتنا الحسناء تأتي فتظلل العاشقين بأجنحتها والهواء رخي، ويختفيان عن الأبصار ، ويعاودان حديث القبلات . . ويقترب الكونت ، فيأخذه العجب ! إنه ليسمع أصواتا ولا يرى أناسا !

وانبرت الجنية الحسناء تقول :

— أنا حامية الحب ، أضرب على بصر من لا يحب غشاوة فلا يسمع أو يرى ! لا تخافا بعد اليوم أمرا ، أيها العاشقان الجميلان .. بل أجيبا داعي الحب في وضح النهار ، والجو صاف وفي الليل والنسيم يرف ، وبجانب الينابيع والأوراق تحف . أرسلني الرب لأصرف عنكم أذى الرجال ، هؤلاء الساخرين من كل فضيلة ، وحباني بأجنحة من الحب وقال : «اذهبي ولتحجب القلوب ! فيا بشركم .. إني هنا أحمي الحب وأرعاه ...

ثم ذهبت تلتقط الندى غذاءها الوحيد تاركة وراءها الحبيبين ، وقد علق فم بفم ، واشتبكت كف بكف ..

وبقيا حتى الليل ؛ فلما دنت ساعة الفراق ظهر الأسى في نظراتهما، فأسرت الجنية اليهما بقول يخيل أنه راقهما ، فانبسطت أسارير وجهيهما إذ سمعاه . ثم رجواها شيئا . فأخرجت قضيبا معها ، ولمست به جبيني العاشقين

وفجأة ... أوه ! يا نينون . مالك دهشت

هكذا . انتظري سأتم قصتي .. وفجأة انقلب لوئيس مع أوديت إلى غصنين من أغصان المارجولين ! نعم من المارجولين الغض الزاهي . نبتا جنبا إلى جنب ، ولامست أوراق الأول أوراق الثاني ، واشتبكا . هنا يا فتاتي . تتفتح أزهار لن يمد القبول اليها يده ، بل تبقى .. ويبقى أريجها متضوعا إلى الأبد

والآن يا نينون ، عندما نعود عند الروح الخضراء سنبحث عن أغصان المارجولين وسنسألها في أية الزهرات تختبئ الجنية الحسناء . إن لقصتي يا صديقتي مغزى ، وما كنت لأقصها عليك إلا لأنسيك مطر ديسمبر الذي يلطم الزجاج وأبث فيك هذا المساء شيئا من الحب ... نحوي ... أنا !

ص . م